obeikandl.com

العقل والنقل عند الغزالي

obeikandl.com

إن الله خلق الإنسان، فكان أعظم ما شرفه به، وكرمه به العقل، الذي تنبه به على البهجة، وألحقه بسببه بعالم الملائكة حتى تأهل به لمعرفة بارئه، ومبدعه بالنظر في مخلوقاته، واستدلاله على مخلوقاته، واستدلاله على معرفة صفاته، وبما أودعه في نفسه من حكمة، وأمانة، قال الله تعالى: (وفي أنفسكم أفلا تبصرون)[٥٤] فالبارئ عزّ وجل أودع الإنسان العقل، بل من أعظم الدلالات عنده على وجود بارئه، ومدبره، وخالقه، ومصوّره، فإنّه ينظر في العقل كيف فيه التدبير، وفنون العلم، ومستقر المعرفة.

" حجب الله سبحانه ما بين سمواته وما فوقها، وأرضه، وما تحتها حتى كأّنه يشاهده أبين من رأي العين فهو]العقل[موضع الحكمة ومعدن العلم كلما ازداد علماً ازداد سعة وقوة، يأمر الجوارح بالتحرك"[٥٥] .

"فالعقل أولى بأن يسمى نوراً من العين الظاهرة الرافعة قدره عن النقائص السبع، وهو أن العين لا تبصر نفسها، والعقل يدرك غيره، ويدرك صفات نفسه: إذ يدرك نفسه عالماً وقادراً: ويدرك علم نفسه ويدرك علمه بعلم نفسه، وعلمه بعلم نفسه إلى غير نهاية، وهذه خاصية لا تتصور لما يدرك بآلة الأجسام، ووراءه سر يطول شرحه" [٥٦]

---

(٥٤) سورة الذاريات آية٢١.

(٥٥) الحكمة في مخلوقات الله. الغزالي. ص ٦٦.٦٧.

(٥٦) مشكلة الأنوار. الغزالي. ص٤٤.

obeikandl.com

"وأنّ العين لا تبصر ما بَعُدَ منها، ولا قرب منها قرباً مفرطاً، والعقل يستوي عنده القريب، والبعيد يعرج في تطريفه إلى أعلى السموات رقيّاً، وينزل في لحظة إلى تخوم الأرضين هوياً، بل إذا حقّت الحقائق يكشف أنه منزه عن أن تحوم بجنبات قدسه معاني القرب، والبعد الذي يفرض بين الأجسام، فإنّه أنموذج من نور الله تعالى، ولا يخلو الأنموذج عن محاكاة، وإن كان لا يرقى إلى ذروة المساواة، وأن العين لا تدرك ما وراء الحجب، والعقل يتصرف في العرش، والكرسي، وما وراء حجب السموات، وفي الملأ الأعلى والملكوت الأسمى كتصرفه في عالمه الخاص، ومملكته القريبة أعني بدنه الخاص، بل الحقائق كلها لا تحتجب عن العقل.

والعين تبصر بعض الموجودات، أما العقل فيدرك الروائح والأصوات والطعوم والحرارة، والبرودة، والقوى المدركة، (البصر ـ الشم ـ الذوق ـ وأيضاً الصفات الباطنية النفسانية كالفرح، والغضب، والغم، والحزن، واللذة، والعشق، والشهوة، والقدرة وغيرها)[٥٧]

وإن هذا النور الذي وهبه الله تعالى للإنسان (نور العقل)، وإلى جانب هذا أرسل الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم مبشرين لأهل طاعته، ومنذرين لأهل معصيته فمدّهم بالوحي، وهيّأ لقبوله، وتلقيه فكانت أنوار ما جاء بالوحي من عند الله بالنسبة إلى نور العقل[٥٨].

---

(٥٧) مشكاة الأنوار. الغزالي ـ ص ٤٥

(٥٨) الحكمة في مخلوقات الله. الغزالي. ص٦٩.

openkanar.com

كما يضيف الغزالي (من أين الثقة بالمحسوسات، وأقواها حاسة البصر، وهي تنظر إلى الظل فتراه، واقفاً غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة بغته بل على التدريج ذرة ذرة، حتى لم تكن له حال وقوف....)[٥٩]

راح الغزالي يفتش عن طلبه هذا مستعيناً بالعقل، وبالحواس، وبظواهر الكتاب، والسنة، وبما عسى أن يكون هناك من فنون أخرى للاستدلال كانت معروفة لذلك العهد، فأحس تضارب هذه الأدلة كما حدث هو عن نفسه في كتابه "جواهر القرآن" فقال حاكياً عن قوم:

(وتناقضت عندهم ظواهر الأدلة حتى ضلوا وأضلوا)

ويقول عن نفسه (ولسنا نستبعد ذلك فلقد عثرنا في أذيال هذه الضلالات مدة)، وطبيعي أن تتضارب هذه الأدلة لأن درجتها من القوة، والضعف، والحق، والباطل ليست واحدة.

كاد الغزالي أن يولي وجهه شطر هذه الأدلة ليفحصها أولاً ويفحص بها ثانياً.

فلا بد أن يستبقي العقل، والحواس فقط، ويطرح ما عداهما، إذ أن ما عداهما لا يمكن أن يحقق للغزالي، ما يطلبه، وهذا هو الذي كان منه.

---

(٥٩) المنقذ من الضلال. الغزالي. ص٢٣

openkandil.com

بيد أن الغزالي لم يطمئن إلى العقل، والحواس دون أن يجري عليهما امتحاناً دقيقاً ليتبين هل في الإمكانية أن يحققا له اليقين الذي يطلبه.

وبطلت ثقة الغزالي بالحواس، فلم يبق له إلا العقل، ولا بد له من اختباره أيضاً (قالت المحسوسات: بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات، وقد كنت واثقاً بي، فجاء حاكم العقل، فكذّبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي، فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر إذ تجلى كذب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل، فكذب الحس في حكمه، وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل على استحالته)[٦٠]

وبهذا يمكن أن نقسّم حياة الغزالي إلى ثلاث فترات:

١ـ الفترة التي سبقت شكه فيمكن التغاضي عنها لأن في هذه الفترة كان متعلّماً لم يبلغ درجة النضج الفكري، الذي يهيئ له أن يكون ذا رأي مستقل، وخصوصاً أن الغزالي حدثنا أن الشك قد أتاه مبكراً على قرب عهد بسن الصبا.

٢ـ الفترة الثانية: فنستبعد منها أيضا فترة الشك العنيف، لأنه لم ينتج فيه، فتبقى لنا فترة الشك الخفيف، وقد كانت طويلة المدى لأنها ابتدأت منذ سن الصبا إلى أن تصوّف واهتدى.

---

(٦٠) تهافت الفلاسفة. الغزالي. تحقيق الدكتور سليمان دنيا ص٥٢.

obeikandl.com

وقد لاحظنا أن الغزالي خلالها ألّف ((علم الكلام))، وألّف في نقد الفلسفة، وفي نقد مذهب الباطنية، وكان يقوم بالتدريس في مدرستي نيسابور وبغداد.

ومما يثير الدهشة أن شاكاً في الحقيقة يصدر تآليف إيجابية حول الحقيقة ويدرس تدريساً إيجابياً، وأعني بالتأليف، والتدريس الإيجابيين الشرح دون النقد والتزييف.

غير أن قارئ كتابه "التهافت" الذي ينقد فيه الفلسفة يحس أن صاحبه يحمل في نفسه معاني إيجابية، يريد أن يفسح الطريق لها بهدم ما يخالفها، استمع إليه يقول:

(ونحن لم نلتزم في هذا الكتاب. يعني التهافت. إلا تكذيب مذهبهم وأما إثبات المذهب الحق فسنصنّف فيه كتاباً بعد الفراغ من هذا إن ساعد التوفيق إن شاء الله نسميه "قواعد العقائد" ونعتني فيه بالإثبات كما اعتنينا في هذا بالهدم)[٦١]

وقد وفّى الغزالي بما وعد، فألّف كتابه المشهور "قواعد العقائد" في علم الكلام، وظاهر من ذلك أن الغزالي كان يهدم الفلسفة لأنها تناقض مذهباً كلامياً معيناً يريد مناصرته.

---

(٦١) تهافت الفلاسفة. الدكتور سليمان دنيا. ص٦٥.

obeikandl.com